

آداب الخطيب وخصائص الخطبة

الأستاذ خليفة عبد الحكيم
إمام بولاية تبسة

آداب الخطيب

وهذه الآداب قسمان:

أحدهما: متصل بالصفات الواجب توافرها في الخطيب حتى يكون خطيبا ناجحا.

والقسم الثاني: متصل بالعيوب التي يجب أن يحذر منها لما تجلبه له من النفور من السامعين، لأن الخطيب بمثابة القدوة التي يقتدي بها في أواسط المجتمع، لذلك عليه أن يمارس قضيتي التخلية والتحلية، أي أن يلتزم بصفات وأن يحذر من أخرى، وسنورد أهم هذه الصفات.

أولا - الإيجابيات التي ينبغي توافرها

من المعروف أنه: ما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان وما خرج من القلب يصل إلى القلب فحرك دم الإصلاح فيه.

وهذه قاعدة لا بد لكل واعظ أن يمر عليه قبل أن يقف على المنبر أو يجلس ليقول كلمته، ونستطيع وصف الواعظ أو المرشد إجمالا كما ذكر الشيخ محمد البهي في كتابه إصلاح الوعظ الديني بأنه:

«شخص كملت نفسه، وتهذب خلقه، ورشد عقله، عامل بما علم، واقف عندما رسمه له الشارع، مليء قلبه بخشية الله، بصير بأحوال الناس، خير بأموارهم، ليس خبا ولا مغفلا، عليم بالطريق الذي يسوسهم منه... لا يعرف اليأس إليه سبيلا، وكيف يتسرب اليأس إلى نفسه وما عليه إلا البلاغ المبين، يعرف القرآن جد المعرفة، ويعرف أعمال الرسول ﷺ وهديه، سياسي حكيم يأتي للناس من جهة ما يعرفون ليصل بهم إلى ما ينكرون من حيث لا يشعرون، نبيه يستطيع أن يعظ كل صنف من الناس، فهو بذكائه يستطيع

3 - أن يتميز الخطيب بالشجاعة في الجهر بالحق، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُؤدّع منها»⁽¹⁾، وخاصة من الأمة الخطباء، لكن لا بد أن تكون هذه الشجاعة مضبوطة بضوابط شرعية، كأن يتأكد من الظلم أنه ظلم حقا متفق عليه بين المذاهب وعامة الناس، وكأن يسكت عن منكر خشية وقوع أكبر منه، وكذلك لا تعني الشجاعة سب الناس وتجريحهم، ولكن هو تبين الحق من الباطل بأدلة شرعية، لأن غاية الخطيب هو نصح الناس لا تجريحهم لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَذَّكَّرُ أَوْ يُخَشَى﴾ طه: ٤٤.

4 - العفة والياس مما في أيدي الناس، فمن يئس مما عند الناس استغنى عنهم، فيبقى محبوبا مهيبا ينتفع به، وقد ورد أن رجلا دخل البصرة فسأل أهلها من سيدكم؟ فقالوا الحسن البصري، قال: فكيف سادكم؟ قالوا: استغنى عن دنيانا فافتقرنا لعلمه.

أن يرد شاردهم ويكبح جامحهم إلى حيث يسمعون عظته البليغة وقولته الساحرة».

تلك هي بعض الصفات التي يجب على الواعظ التحلي بها، وهناك صفات أخرى مكملة لما ذكرنا وهي:

1 - أن يجتهد ما استطاع للعمل بما يدعو إليه، إذ كيف يتصدى للإصلاح وهو غير صالح، وكما قيل: كيف يستقيم الظل والعود أعوج، وقيل في المعنى: لا تنه عن خلق وتأتي مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم ابدأ بنفسك فأنهها عن غيرها

فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم فهناك يسمع ما تقول ويتشفى

بالقول منك وينفع التعليم

2 - أن يتميز بالحلم وسعة الصدر، فكمال العلم والحلم ولين الكلام مفتاح القلوب. واعلم أخي الواعظ أنه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَاقْتَضَوُا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩، حتى إن قصد إغضابك واستفزأك فعليك ألا تنفعل، لأن هناك المغرض الحسود الذي يترصد الوقت الذي يصيح به فيك أمام الناس فكن ذكيا.

5 - قوة الثقة بالله تعالى في وعده وكمال الرجاء في حصول الفائدة مهما طال به العلاج وعظمت المصائب، لأنه مكلف ببذل الأسباب والنتائج من الله سبحانه وتعالى، فلا يغضب إذا لم يجد أثرا لدروسه لأنه مأمور بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ الغاشية: ٢١ - ٢٢، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد: ٧، وعلى الخطيب كذلك ألا ينتظر المدح من الناس فإذا مدح زاد نشاطه وإذا لم يمدح ضعفت همته وقل نشاطه لأن هذا من علامات عدم الإخلاص.

6 - التواضع⁽²⁾ ومجانبة العجب، لأن ذلك بالدعاة والمرشدين أليق ولهم الأزم، وهو بكل أحد قبيح وبالمُرشدِين أقبح أي العجب.

فعلى الخطيب ألا يظهر أنه أفضل منهم علما أو أشدهم ورعا، بل دائما يظهر التواضع والفقر إلى الله تعالى كما كان يقوم الإمام عمر بن عبد العزيز وهو يخطب: «أيها الناس إني لآمركم بتقوى الله، ولا أعلم أحدا أكثر ذنوبا مني».

وعلى الخطيب أو المدرس أن يوظف عبارات تدل على التواضع، كأن يقول في بداية كلامه أو أثناءه: أنتم تعلمون أن كذا هو كذا، أو قوله: مثلكم لا يخفى عليهم، أو قوله: أنتم في مقام يؤهلكم إلى فهم هذا الكلام، أو قوله: كلنا يعلم أن كذا حرام أو حلال...

8 - وعلى الخطيب أن يستمع إلى السائل باهتمام، وأن يقبل عليهم بوجهه ولا يقاطعهم حتى يتموا كلامهم، لأن ذلك مما يزيد الناس فيه الثقة به.

9 - على الخطيب كذلك أن يكون ذا همة عالية يستمد السامعون همهم منها، وإذا ضعفت همته فلا تنزل عن أن تكون أكثر منهم مستوى.

10 - على الخطيب أن يكون جميل المظهر نظيف الھندام طيب الرائحة، لأن الناس يراقبونه من جميع جوانبه يقول تعالى: ﴿وَبَابِكَ فَقَطِّرْ ۖ﴾ المذثر: ٤، وقوله: ﴿بَنِيَّ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف: ٣١، هذا لعامة الناس فكيف للخطيب.

11 - وعلى الخطيب أن يكون على صلة حسنة بكل من يعتاد درسه وخطبته ويحسن به أن يتعرف على أسمائهم شيوفا وشبابا، فإنه مدعاة لمحبة واحترامه ودليل على اهتمامه بهم.

ثانيا: السلبات الواجب تجنبها

1 - عليه أن لا يقع في عكس ما ذكرناه.
2 - عليه أن يتعد عن أماكن الشهات وما يخل بالمروءة، كالإكثار من الجلوس في المقاهي أو التجول في الأسواق بغير حاجة أو مصاحبة بعض الناس المشبوه فيهم.

3 - أن يلتزم ما استطاع بتأدية الصلوات بالمسجد، وخاصة الفجر والعشاء.

4 - أن يحذر من الإكثار من الديون فيما لا ضرورة إليه، كأن يشتري بعض الكماليات لأن الإكثار من الديون تذهب من هيئته، وتقيد الخطيب عن الكلام أحيانا.

5 - أن يحرص على أن يكون قدوة في بيته، خاصة مع والديه وإخوانه وزوجه، حتى إذا سألوا عنه أهله قالوا: هو خيرنا، فهذا يزيد ثقة الناس به.

6 - أن يتجنب الجدل أي الحوار العنيف، فإذا حدث ذلك فالأفضل أن ينصرف الخطيب إلى كلام آخر لا يخسر على الأقل ثقة السامعين به، وحتى لا يشعر السائل أنك تستهدف غلبته وتستهدف بخسه أمام الناس.

7 - أن يحذر الخطيب من عدم إنزال الناس من منازلهم، حتى يشعروا بحاجتهم إليه وبحاجتهم إلى ما يدعو إليه.

8 - أن يتجنب السباب والشتام وإثارة الغرائز والحمية، لأن الله نهانا أن نسب الناس فيسبوا الله عدوا بغير علم لقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأنعام: ١٠٨.

9 - أن يراعي مكانة المخاطبين، فلا نحدث الناس حديثا واحدا، فهناك الأمير وهناك الوزير، وهناك الصغير وهناك الكبير، وقد أوصانا ربنا أن نجادل أهل العلم بالتي هي أحسن لقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ﴾ العنكبوت: ٤٦.

10 - ومن الأخطاء أيضا العزلة، فبعض المشايخ والخطباء لا يكادون يزورون أحدا، ولا يردون الزيارة لأحد ولا يجلسون في المسجد، ولا خارجه مع أحد لأنه - في اعتقاده - يرى لنفسه مكانة خاصة ينفرد بها عن الناس، رغم أن الداعية والخطيب الأول ﷺ كان يمشي مع الناس ويقضي حاجة الأرملة والضعيف.

يكون الكلام فيها ثقيلاً مثل أوقات الراحة أو أوقات الحر الشديد أو البرد الشديد، أو اشتغال الناس بأمر دنيوي هام كالتجارة التي تستولي على اهتمام الناس غالباً.

4 - لابد أيضاً من حسن اختيار المكان، فلا يخاطب الناس في مكان يستحيل أن يسمعوا إليه فيه كمكان حار أو بارد أو كثير الضوضاء، بل لابد أن يكون مكاناً محادياً يليق بقيمة ما تدعو الناس إليه كالمسجد مثلاً.

5 - حسن الأداء والتفاعل مع الخطبة، ومنه البدء بالبسملة والحمد والثناء، واستحضار المادة والتشويق، ولابد أن يشعر الناس من خلال تفاعله أنه يحمل دعوة حقاً لا تظاهراً فقط.

6 - ثم عليه أن يكون فصيحاً واضحاً في كلامه الذي يلقيه إلى الناس، وأن تكون فكرته واضحة وسهلة وفي متناول الجميع ووضوح آيات القرآن مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ ﴿أَفَرَأَى وَرَبِّكَ الْأَكْزَمُ ۝٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿العلق: ١ - ٥، أمور واضحة، وقول الأنبياء: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾﴾ الأعراف: ٥٩، ﴿لَا تُزِيدُنَكُمْ

فخلق الاعتزال أو التمشيح جاء عن بعض النزعات الصوفية المغالية، فلا بد أن يكون الخطيب رجلاً اجتماعياً بالقدر الذي لا يفقده قدره واحترام الناس له.

خصائص الخطبة

أولاً - ما يجب الحرص عليه فيها

1 - حسن اختيار الموضوع: فعلى الخطيب أن يعرض الموضوعات التي يهتم الناس بها غالباً فتشرح لهم غامضاً أو تضيف إليهم جديداً.

2 - اختيار اللفظ والعبارة التي يؤدي بها الموضوع، فلا يأتي بالهجين السوق أو الغريب المتشابه، وتسهيل الكلمات والألفاظ أمر مطلوب، وهذا يتوقف على سعة معرفته بألفاظ اللغة، فيجب أن يخاطب الناس بما يفهمون قال ابن عباس: «خاطبوا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»، وقوله: «ما أنت محدثاً بحديث لا تبلغه العقول إلا كان لبعضهم فتنة».

3 - حسن اختيار الوقت الذي يكون فيه الناس على استعداد للتلقي، لأن بعض أوقات النهار أو الشهر أو السنة وبعض المناسبات

جَزَلَةً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ الإنسان: ٩، كلمات دقيقة واضحة ومؤداة على أحسن ما يكون.

وقد يتضح ذلك أكثر في قول الله تعالى لموسى: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ طه: ٢٤، أي توجه إلى فرعون لأنه زاد عن حده.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٥٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٥٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٥٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ طه: ٢٥ - ٢٨، أي اجعل عندي حماسا واندفاعا ورغبة تعينني على إتمام هذا الواجب الثقيل.

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي هب لي من الأسباب ما يهون عليَّ الشدائد التي ستعرض لي في طريقي، وقني كيد الكائدين ولين لي قلوب المعاندين.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٥٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ وارزقني الفصاحة والكلمة المؤثرة، فذلك أعون على التأثير في الناس.

ثم طلب بعد ذلك رفيقا وعونا ومساعدًا من أهله ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٦١﴾ هَٰذُونَ أَخِي﴾ طه: ٢٩ - ٣٠ (٣)، لماذا؟ ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ ﴿٦١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٦٢﴾ كَيْ سُبْحَكَ كَثِيرًا ﴿٦٣﴾ وَنَذْرُكَ كَثِيرًا﴾ طه: ٣١ - ٣٤،

كلها أمور واضحة لا غموض فيها.

7 - ولابد على الخطيب أن يميز بين قراءة الآية والحديث والشعر، حتى تبين الآيات لابد أيضا أن يميز قراءة آيات العذاب عن آيات الرحمة، فيحاول أن يعلي صوته في آيات الرحمة، وأن يخفض صوته في آيات العذاب إظهارا للخشوع والخوف فإنه مدعاة للتأثير.

8 - أن يتحدث الخطيب في المواضيع المتفق عليها، ويحذر من الخوض في دقائق الأمور والتحدث في المسائل الخلافية التي يكثر فيها الجدل، وتضعف فيها الأفهام، وتشرد الأذهان، وتزل الأقدام، وتزرع الفتنة بين الأنام.

9 - لابد أن يكون لكل خطبة موضوع معين مرتب العناصر، وعلى كل خطيب أن يسأل نفسه ماذا يريد أن يدعو الناس إليه، وبعد فراغه منها ما الذي استفاده السامعون من خطبته.

10 - وما يحرص عليه الخطيب هو توزيع صوته بين الارتفاع والانخفاض، فلا يكون منخفضا طوال الخطبة ولا مرتفعا، إنما هناك مواضع يصلح فيها الوجه الأول والأخرى يصلح فيها الوجه الثاني، كذلك لابد من

على أوقات السامعين، ومن تطور الدعوة في هذا الزمان هو أن أكثر الوعاظ أصبح منقطعاً للخطابة والتدريس، فالوقت عنده لا ثمن له في الوقت الذي يكون ثمنه غال جداً عند بعض السامعين.

فنتج عن ذلك أن يتناقص الإقبال على دروس الوعظ والعلم بسبب هذا الإطناب والاستطراد المخل، فيجب على الخطيب أن يحدد الموضوع، وأن يقسمه إلى فقرات وأن يلحظه إن أمكن في الختام.

3 - ومن الأخطاء أيضاً التظاهر بالانتهاء ثم الاستمرار، فبعض الخطباء يشعر بأنه سيختم بقوله: مثلاً ونوصيكم بالرجوع إلى الله، ثم ينشئ خطبة جديدة كأن يقول: والرجوع إلى الله لا يكون إلا بعوامل خمسة ويبدأ في خطبة أخرى جديدة، فلا بد أن يكون هناك نوع من الضبط في الحديث.

4 - ومن الأخطاء أيضاً نقص الدراسة أو المعلومات حول الموضوعات، كرواية الحديث الضعيف أو الموضوع أو الخطأ في تلاوة الآية الكريمة، أو نسبة النص إلى من لم يقله، أو المجازفة بتقرير أحكام شرعية غير صحيحة، أو قراءة حكمة على

ضبط توزيع حركاته حتى لا تطغى حركات اليدين على الكلام.

11 - ويجب على الخطيب أن يوزع نظراته على جميع الحضور حتى لا يسبب حرجاً لبعضهم، فقد يتكلم مثلاً عن الربا ويركز نظره على جهة معينة دون قصد، ويكون في ذلك المكان تجار، فقد يفهم الناس أنك تقصد من تنظر إليه، فضلاً على إحراجهم الذي قد يوصله إلى كرهك، وأنت تقصد ذلك فعليك بالحد من إذن.

ثانياً - ما يجب الحذر منه في الخطبة

1 - أن يحذر الخطيب من الاستطراد في الخطبة أو الدرس، ففي حالات الخطابة الارتجالية أي من الذاكرة بغير تحضير لا يكون الموضوع محددًا، فبعض الخطباء يتحدث في ميادين لا رابطة بينها، كأنه يريد أن يتكلم عن الإسلام كله في مقام واحد، حتى تضيق صدور السامعين ولا يفهمون ما يريد، لكثرة الخلط وعدم المبالاة بالسامعين وباهتماماتهم.

2 - ومن الأخطاء الإطالة في الخطبة، فهي آفة الخطابة، وهو مخالف لهدى الإسلام والطاقة الذهنية المحدودة، فلا بد أن يحافظ

غير وجهها الصحيح، فقد روي أن خطيباً كان يخطب في الناس ويقرأ في ورقة فقال: «أيها الناس إن الزناعمَ والرِّباطمَ»، فلم يفهم الناس ما يقول وأصل الكلام: «إن الزنى عمٌ، والرِّباطمٌ».

5 - ومن ذلك أيضاً الحشو وإيراد البديهيات التي يعرفها كل الناس، فيصبح الكلام تضييعاً للجهد والأوقات، وهذا دليل على ضحالة المعرفة وقلة العلم.

6 - ومن الأخطاء أيضاً المبالغة في الصلاة على الرسول ﷺ وأمر الناس بذلك، فقد رأينا من الخطباء من كرر أكثر من عشرين مرة: صلوا على رسول الله ﷺ في أقل من عشرة دقائق والناس يقولون ثم خرج الناس، وقد صلوا على رسول الله ﷺ ولكنهم لم يستفيدوا شيئاً غير ذلك.

7 - ومن الأخطاء أيضاً الإطالة في الدعاء وتكرار بعضه، فبعض الخطباء يحفظ الكثير من الأدعية المتسلسلة والبليلة في الدعاء إلى حديث السامعين ويفقدون حلاوته والتلذذ به، وأيديهم مرفوعة توشك أن تسقط على أجسامهم، فلا بد أن يكون الأمر وسطاً بين الإطالة والاختصار، ولكل موضوع دعاؤه الخاص والمناسب له.

8 - أن يحذر من عدم تحضير الدرس أو الخطبة تحضيراً دقيقاً، وعليه أن يضمّن المعلومات التي يحتاجها تضميناً بارعاً وأن يوزع الفقرات، وأن يبدأ بداية حسنة، وأن يلخص الموضوع في النهاية إن استطاع.

9 - أن يحذر الخطيب أثناء إلقاءه للدرس أو الخطبة من استعمال العامة التي يختلف الناس في تفسيرها حسب الأعراف، بل يحاول أن يتكلم العربية بأسلوب بسيط إذا أراد ذلك.

10 - وعلى الداعية كذلك أن يفترض في الناس أنهم أهل علم ودراية، فلا يكثر الكلام في البديهيات والمسلمات بل يدلهم على ما يمكن تنفيذه والاستفادة منه، ولا يدلهم على أمور أكبر من طاقتهم لأنه كما يقول المثل: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

فمنهم من تحته مثلاً على المحافظة على الفرائض فقط، ومنهم من تزيده أداء بعض النوافل مع الفرائض، ومنهم من تأمره زيادة على ذلك بالإنفاق من حاله⁽⁴⁾.

11 - أن يحذر من كثرة إيراد النكت والمضحكات التي تحول الدرس إلى مسرحية وتذهب هيبة المجلس ومضمون الموضوع.

12 - وأن يحذر الخطيب من إظهار التحيز أو التعصب أثناء خطابة إلى جهة أو فكرة معينة، بل لا بد أن يكون خطيب عامة ونقطة إلقاء ومحل الثقة بين أفراد قريته أو بلدته.

13 - أن يحذر الخطيب من اتباع أهواء الجماهير ورغباتهم، فيجرح في أشخاص أو هيئات فيسبب لنفسه المتاعب والمشاكل.

12 - وأن يحذر الخطيب من إظهار التحيز أو التعصب أثناء خطابة إلى جهة أو فكرة معينة، بل لا بد أن يكون خطيب

13 - أن يحذر الخطيب من اتباع أهواء الجماهير ورغباتهم، فيجرح في أشخاص أو هيئات فيسبب لنفسه المتاعب والمشاكل.

الهوامش

- (1) ينبغي ألا ينصرف الذهن إلى ظلم الحكام فقط بل هناك أنواع كثيرة من الظلم كظلم التجار وظلم الآباء وظلم الرعية بعضها لبعض.
- (2) التواضع الذي لا يوصله إلى الذلة التي تذهب هيئته، والتواضع ليس معناه التصنع في المشية أو خفض الصوت....
- (3) فالعصيات ضارة إذا طلبت لذاتها، ولكن لا بأس بها إن سخرت لخدمة الدعوة.
- (4) وهو منهج النبي ﷺ في الدعوة إلى الإسلام.